دراسة في العناصر البلاغية المؤثرة على الإحالة ووظائفها

لو ينغ بو (Lu Yingbo)
قسم اللغة العربية ،جامعة بكين

ملخص:

تعتبر الإحالة وسيلة هامة للتماسك النصي، ويعد الإستعمال الصحيح والمناسب للإحالة ضرورة لتكوين النص الكامل والمتماسك. إن أشكال الإحالة لم تتأثر بـ "درجة سهولة الوصول (accessibility" فحسب بل تتعرض للتأثيرات من ميادين مختلفة كالمؤثرات البلاغية التي تلعب دورا مهما جدا في تحقيق الأهداف البلاغية في النصوص وزيادة القوة التأثيريةعلى القراء. في هذا البحث نحاول أن نوضح العناصر البلاغية المؤثرة على الإحالة ووظائفها باتخاذ النصوص الكلاسيكية كأساس واعتماد النظريات العلمية لتحقيق هدف بحثنا.

الكلمات المفتاحية: الإحالة، وظائف الإحالة، البلاغة

النصوص:

الإحالة الى السابق(Anaphora) يُقصَد بها المشاركة اللفظية في مرجع أو مفهوم واحد في سياق النصوص، مثل عودة الضمير على متقدم في مثل قولنا: "السماءُ نجومُها مضيئةٌ" فالضمير "ها" يعود على متقدم هو السماء، ولا يمكن تفسيره إلا بالرجوع إلى ما يحيل إليه، ومن ثم ترتبط الكلمة الثانية بالكلمة الأولى. ويعد هذا التكرار من قبيل الإحالة إلى سابق. تظهر الإحالة وتعابير الإحالة بأشكالها المختلفة في النصوص، وعادة العناصر المسيطرة على أشكال الإحالة هى "درجة سهولة الوصول(accessibility) "وهي

المفهوم المستعارمن مصطلحات العلوم السيكولوجية والذي يقصد به مدى سهولة الذكر للمفاهيم النصية بالنسبة الى القراء خلال عملية القراءة. يمكننا أن نستخلص المفهوم العالي في درجة سهولة الوصول بتعبير الإحالة البسيط الشكل مثل الضمائر بما فيها المستترة، أما بالنسبة إلى المفهوم المنخفض في درجة سهولة الوصول فلا يمكننا أن نستخلصه الا بتعبير الإحالة المعقد الذي يحتوي على المزيد من الدلائل واللجوء اليه لتذكير القراء لإتمام عملية الاستخلاص.

تلعب الإحالة دورا هاما في تطور النصوص العربية وتتأثر أشكالها بالعناصر من مختلف الميادين مثل البنيوي والدلالي والتداولي والبلاغي ...إلخ. سنتحدث في هذا البحث عن العناصر التي تؤثر على أشكال الإحالة في تطور النصوص وإمدادها والوظائف التي تتحملها في وقت استخلاص المفهوم المتقدم.

تشارك الدراسة البلاغية الدراسة التداولية نقاط كثيرة، غير أن الفرق الجوهري بين الاثنين هو أن الدراسة البلاغية وظيفية وتستهدف حكم ما إذا كانت التعابير لائقة ومناسبة في سياق الكلام، أما الدراسة التداولية فهى تفسيرية وتستهدف تحليل دوافع اختيار تعابير الإحالة. نقسم هذا البحث الى جزئين للتحدث عن صور العناصر البلاغية المؤثرة على الإحالة ووظائفها في تطور النصوص.

1. أنواع العناصر وكيفية تأثيرها على الإحالة

إن تعابير الإحالة تتعرض لتأثيرات العناصر البلاغية في عملية إحالة المتقدم، وهي تلعب دورا هاما في إيجاد النتائج البلاغية والتي دائما تأتي بأشكال خاصة لتحقيق هذا الهدف. يعتبر الإبداع وسيلة رئيسية لخلق الصورة البلاغية للفت أنظار القراء وإيجاد التعابير التي تدعو إلى الدهشة وزيادة الجمال النصي. يمكننا أن نقسم العناصر البلاغية المؤثرة على أشكال الإحالة إلى ثلاثة أنواع من حيث أساليب الإبداع.

2-العناصر الصوتية المؤثرة:

هذا النوع من العناصر المؤثرة يُؤدي دوره من خلال الإبداع في مجال الصوت تحت تأثير السيكولوجيا البلاغية لتحقيق النتائج المرجوة. في عملية إقامة العلاقات الإحالية تبرز التعابير الإحالية المتأثرة بالعناصر الصوتية البلاغية سجعها وتكرارها الصوتي لتحقيق الانسجام السمعي وتشديد لهجة التعبير. وهذا يتمثل في المثال التالي:

((**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ* وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ**)) الروم 20-25

في هذا المثال، تعتبر "آياته" التي تحتها خط تعبير الإحالة وهي تشير الى الكلمات التي تحتها خط مزدوج، فإن ظهور "آياته" في مواقعها النصية لم يكن لغرض الوصول الذهني للمفهوم المتقدم. بل لغرض الحفاظ على النطق نفسه بين المحيل والمحال اليه عن طريق التكرار الصوتي لخلق النتائج البلاغية الخاصة لتعظيم الإعجاز من الله سبحان وتعال وتعزيز القوة التأثيرية للقراء، فإن اختيار النص لهذا الشكل هو لإحالة المفهوم المتقدم هو نتيجة تدخل العناصر الصوتية البلاغية المؤثرة.

1.2 العناصر الشكلية المؤثرة

هذا النوع من العناصر المؤثرة يؤدي دوره من خلال الإبداع في مجال الشكل لخلق النتائج البلاغية الخاصة، والتي تظهر بشكل معين في موقع النص متأثرة بالعناصر المؤثرة الشكلية في عملية تحديد تعابير الإحالة لتحقيق الأهداف البلاغية المرجوة في الوقت نفسه استخلاص المفاهيم المحال إليها وهذا يتمثل في المثال التالي:

- القضية على الحبل؟
- القضية على السرير.

توفيق الحكيم <يوميات نائب في الأرياف> ص22

إن "القضية" التي تحتها خط تأتي كتعبير إحالة في النص لاستخلاص المفهوم الذي ظهر في سياق الكلام السابق وتحت الكلمة التي تعبر عنه خط مزدوج. إذا نظرنا من ناحية الإحالة، وجدنا أن المحال إليه الذي يحتل موقع الموضوع في الجملة التي تتضمنه والذي يتميز بدرجة بروز عالية في النص الأمر الذي يوفر له الظروف لاستخلاص المحال إليه بالضمير الذي بسط شكله في عملية تحديد تعابير الإحالة في النص وفقا لمبدأ الاقتصاد التداولي، مثل:هي على السرير.

ولكن في النص الواقعي وجدنا ظاهرة المخالفة: اختيار الشكل الأكثر تعقيدا لاستخلاص المحال إليه يرجع الى تصميم النص على خلق "الطباق" الشكلي باستعمال "القضية على الحبل" و"القضية على السرير" في نفس المكان والمقارنة الدلالية الواضحة بين التعبيرين للقيام بالسخرية والتهكم على ما جاء في القصة من أسلوب العمل المهمل لمدير المحافظة الذي نام خلال وقت الدوام. من أجل تحقيق هذه النتيجة البلاغية ترك النص التعابير الطبيعية ووقع اختياره على المسمى المبدع للقيام بالربط الإحالي مع الكلمة المحال اليها. لنر المثال الآخر:

- لنسمع رأي خديجة، إنها المدرسة الأولى لأحمد، وهي أقدر على الاختيار بين الحقوق والآداب.
- إذا كان أحد في الموجودين في حاجة إلى الآداب فهو أنت لا أحمد، ابني المجنون! (نجيب محفوظ <السكرية>) ص 30

في هذا المثال، "الآداب" التي تحتها خط ترجع إلى الكلمة "الآداب" تلك التي تحتها خط مزدوج، وهي جاءت في كلام المخاطبة الأولى.في الحقيقة، الربط بين "الآداب" الأولى و"الآداب" الثانية ليس الربط الإحالي بأتم معنى الكلمة كون أن الاثنين ليست لهما نفس المفهوم النصي، ولكن إذا تأملنا في هذا الموضوع من منظار المخاطبة الثانية، لوجدنا أنها تتعمد في استغلال صفة تعدد المدلولات لكلمة "الآداب" وتكرر الآداب في كلام المخاطبة الأولى لنقل المدلول المختلف لتحقيق "التورية". في هذه العملية لتحديد تعابير الإحالة، تعد "الآداب" الشكل الوحيد القابل للاختيار نتيجة لتدخل العناصر البلاغية الشكلية التي تعتمد إلى حد كبير على صفة الكلمة "الآداب" في تشارك المدلولات في كلمة واحدة.

1.3 العناصر الدلالية المؤثرة

العناصر الدلالية المؤثرة تؤدي دورها من خلال الإبداع في مدلول تعابير الإحالة المختارة التي انحرفت من القانون العادي لعملية اختيار تعابير الإحالة لخلق النتائج البلاغية. معظم النتائج البلاغية تم تحقيقها على المستوى الدلالي، في عملية اختيار تعابير الإحالة إن العناصر الدلالية المؤثرة تجعل الإحالة وسيلة لنقل المعاني الخاصة لخدمة تطور القصة من طريقتين: الإبداع في اختيار مسمى المفهوم المحال اليه والإبداع في الاختراع مسمى المفهوم المحال إليه.

1.3.1 الإبداع في اختيار مسمى المفهوم المحال إليه:

هذا النوع من الإبداع يهدف إلى نبذ المسمى العادي والطبيعي للمفهوم المعين حتى يتم اختيار المسمى الخاص المقصود

لإحالته الى المتقدم. الإبداع في اختيار المسمى يعد الاختياربين مختلف المسميات لنفس المفهوم، يمكننا أن ندعو المسمى الذي يمثل جوهر المفهوم المحال اليه "التعابير العادية" وندعو المسمى الذي لا يمثل جوهر المفهوم المحال إليه إلا في السياق الخاص للنصوص "التعابير الشاذة". إذا اخترنا التعابير الشاذة لاستخلاص المفهوم المحال إليه فمن المرجح أن يكون هذا نتيجة تدخل العناصر الدلالية المؤثرة وهذا نبيّنه في المثال التالي:

"كان للملكة الوالدة شهرة عظيمة في الجنوب جميعه، فما من رجل أو امرأة إلا يعرفها ويحبها ويقسم باسمها المحبوب، وذلك أنها بثت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكننرع وحفيدها كاموس حب مصر جنوبها وشمالها وكراهية الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام، ولقنت الجميع أن غايتهم السامية التي يجب أن يعدوا أنفسهم لتحقيقها تحريروادي النيل من قبضة الرعاة المستبدين."
(نجيب محفوظ <كفاح الطيبة>) ص 23

تأتي الكلمة التي تحتها خط كتعبير الإحالة وهي تحيل إلى المفهوم المتقدم-"أهل الشمال في مصر القديمة"، إن الإحالة لم تتخذ الكلمة البسيطة الشكل لتمثيل المفهوم المحال إليه، بل تتخذ التعابير الشاذة المعقدة "الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام" و"الرعاة المستبدين" لتحقيق النتائج البلاغية في النص في نفس وقت استخلاص المفهوم المحال اليه-"أهل الشمال في مصر القديمة". في هذا المثال تتبلور العناصر الدلالية المؤثرة للإبداع في اختيار مسمى بين المسميات التي تقصد نفس المفهوم. لنر مثالا آخر:

" ووضع لفافة الجلباب على خوان، ودخل الحجرة بقدمين محاذرتين، وسبقته عيناه الى الراقد على الفراش، واقترب منه، وكان رأس الرجل مائلا نحو الجدار. غمغم بصوت خافت:

- مساء الخير يا أبي... كيف حالك؟

لم يبد على الأب أنه سمع حسا أو أدرك شيئا، فانحنت الأم على رأسه وقالت:

- محجوب يمسي عليك." (نجيب محفوظ <القاهرة الجديدة>)ص36

في هذا المثال، تأتي الكلمة "الراقد" في النص لإحالة المفهوم المتقدم "أبو محجوب"، ولهذا الشخص مسميات متعدد للإحالة إليه، بعضها يمثل جوهر المفهوم يعنى يمكن أن يمثل المفهوم في السياق العادي مثل ما جاء في هذا المقطع من الكلمة "الرجل" و"الأب"، أما البعض الآخر فيعجز عن تمثيل جوهر المفهوم ولا يمكن أن يحيل إلى المفهوم إلاّ تحت الدعم القوي من السياق مثل "الراقد"، إنّ اختيار "الراقد" وغيرها من المسميات الشاذة او المبدَعة بدلا من المسميات العادية هو وسيلة لتحقيق الأهداف البلاغية لتتبلور العناصر البلاغية المؤثرة على الإحالة.

1.3.2 الإبداع في اختراع مسمى المفهوم المحال إليه:

هذا النوع من الإبداع يهدف إلى إقامة الرباط الإحالي بين المفهوم المحال إليه والمسمى لغير المفهوم تحت تأثير العناصر الدلالية المؤثرة. مثلما ذكرنا سابقا، يعتبر الإبداع أساس البلاغة فيمكننا أن نعتبر الإبداع أثناء إقامة الربط بين المحيل والمحال إليه مساهما في تحقيق النتائج البلاغية وهذا يتمثل في المثال التالي:

"وقد شبه بعضهم وادي النيل بزنبق ذيْ ساق ملتوية وقد صدق في تشبيهه، فالنيل هو الساق الملتوية والدلتا هى الزهرة وتحت الزهرة مباشرة توجد برعمة صغيرة – وادي خصب هو الفيوم. وفي عهد مضى قبل أن يبدأ تاريخ مصر نفسه لم يكن للزنبق زهرة." (نجيب محفوظ <مصر القديمة>) ص9

في هذا المثال، جاءت كلمة "الزنبق" التي تحتها خط كالمحيل يرجع إلى "وادي النيل" التي تحتها خط مزدوج. في السياق العادي لا يمكن

أن يسمى "وادي النيل" بالزنبق، ولكن في السياق الخاص شبه الكاتب وادي النيل بالزنبق مؤكدا على تشارك الاثنين في الشكل الملتوي، عندما وقع اختيار الكاتب في موقع المحيل فقد تم الإبداع في عملية الوصف والحركة الذهنية فإن التقاء مفهوم "الزنبق" ومفهوم "وادي النيل" في الإحالة هو دليل قاطع لتأثيرات العناصر الدلالية البلاغية على هذه العملية. لنحلل مثالا آخر:

"لا ريب أن هذا العصفور لا يعي ما يقول. هذا الشيخ الأخضر من فصيلة الببغاء لا شك، يردد الألفاظ والأغاني دون أن يعني بها شيئا من الأشياء."

(توفيق الحكيم <يوميات نائب في الأرياف>) ص25

في هذا المثال، التعبير الذي تحته خط "هذا الشيخ الأخضر" يتكون من كلمات الإشارة والمشار إليه وهو المحيل الذي يشير إلى الشيخ باسم "عصفور"، اختيار النص "هذا الشيخ الأخضر" كالمحيل يرجع إلى ما حكت القصة: رافق الشيخ "عصفور" النائب في عملية التحقق وهو يحمل بيده عصا أخضر من الحقول فيدعى الشيخ "الشيخ الأخضر" كالإسم المستعار. لا يمكننا أن نسمي الشيخ ب"الشيخ الأخضر" بدون دعم سياق الكلام، فيعتبر ظهور التعبير "هذا الشيخ الأخضر" نتيجة الإبداع لتعابير الإحالة ووقع هذا الإبداع في عملية اختراع مسمى المفهوم المحال إليه.

2. وظائف العناصر البلاغية المؤثرة

2.1 زيادة قوة تأثير النص

إذا كانت البلاغة علم يبحث في كيفية رفع التأثيرات التعبيرية، فإن النشاطات البلاغية تستهدف الى تطوير التأثير النصي لرفع الوظائف التعبيرية اللغوية لزيادة دقة الوصف وحيويته وأناقته على أساس النظرية الجمالية المعنية.إن العناصر البلاغية المؤثرة تخرق القوانين الجاهزة لتحديد تعابير الإحالة بالإبداع لزيادة القوة

التأثيرية وتجعلها تلعب دورا بنّاء في بناء الهيكل الدلالي لدفع تطور القصة في نفس وقت استخلاص المفاهيم المحال اليها. لنرى المثال الذي ذكرناه سابقا:

" وقد شبه بعضهم وادي النيل بزنبق ذي ساق ملتوية وقد صدق في تشبيهه، فالنيل هو الساق الملتوية والدلتا هى الزهرة وتحت الزهرة مباشرة توجد برعمة صغيرة – وادي خصب هو الفيوم. وفي عهد مضى قبل أن يبدأ تاريخ مصر نفسه لم يكن للزنبق زهرة."(نجيب محفوظ <مصر القديمة>) ص9

في هذا المثال، اختار النص الكلمة "الزنبق" لإحالة المتقدم "وادي النيل" تحت العناصر البلاغية المؤثرة، شبه الكاتب وادي النيل بالزنبق لوصف صورة النيل الملتوية والمفعمة بالنشاط والحيوية، و إذا ما غيّر التعابير البلاغية بالتعابير العادية مثل "الوادي"، فإن النتائج التعبيرية ستضعف بشكل كبير.لنرى ونثبت هذا في مثال آخر ذكرناه سابقا أيضا:

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ* وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مَاء فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ)) الروم 20-25

في هذا المثال، العناصر البلاغية المؤثرة اختارت الأشكال المتكررة وتحافظ على نفس شكل الكلمة المحال إليها لإبراز مدلول "آياته" خلال التجويد لتعظيم معجزة الله لخلق كل مكونات الدنيا. اذا

بدلنا "آياته" بالضمير "ها"، فإن النتائج التعبيرية ستضعف بشكل واضح، ومن هذا يمكننا أن نرى أن للعناصر البلاغية القوة المسيطرة على أشكال المحيل حتى يحددها لتعظيم النتائج التعبيرية العامة.

2.2 زيادة القيمة الجمالية للإحالة

إن العناصر البلاغية تساعد على رفع الوظائف الدلالية للإحالة حتى تتسم بميزة فريدة لتحقيق القيمة الجمالية وتصبح وسيلة فعالة لخلق النتائج البلاغية المرجوة. تبرز العناصر البلاغية المزايا الخاصة للإحالة في وقت استخلاص المفاهيم المحال إليها.

تحت كبح العناصر البلاغية وتأثيراتها لا تعد الإحالة آلة الوصل لتحقيق تماسك النص فحسب، بل هى وسيلة هامة لتحقيق الأهداف البلاغية من الصوت والشكل والمدلول. إن الغاية النهائية للبلاغة هى تحقيق القيمة الجمالية لأغراض مختلفة لزيادة الحيوية والقوة التأثيرية للسعي وراء القيمة الجمالية. عندما قمنا بدراسة وتحليل تأثيرات العناصر البلاغية على أشكال الإحالة، نرى أنها وسيلة فعالة لتحقيق القيمة الجمالية للإحالة في النصوص.

المراجع

1. إبراهيم أنيس، <دلالة الألفاظ>، مكتبة الأجلو المصرية، 1984..
2-ابن جنّي، <الخصائص>، المكتبة التوفيقية، مجهول التاريخ.
3. أحمد عفيفي ، الإحالة في نحو
النص WWW.KOTOBARABIA.COM 2005
4، تمام حسان، <اللغة العربية معناها ومبناها>، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994.
5. توفيق محمد شاهين، <المشترك اللغوى نظريا وتطبيقا>، مكتبة وهبة، 1980.
6. عبد القاهر الجرجاني، <دلائل الإعجاز>، مكتبة القاهرة، 1961.

7. نجيب محفوظ، <قصر الشوق>، دار الشروق، 2008، الطبعة الثالثة.

8. نجيب محفوظ، <السكرية>، دار الشروق، 2008، الطبعة الثالثة.

9. نجيب محفوظ، <كفاح طيبة>، دار الشروق، 2007، الطبعة الثانية.

10. نجيب محفوظ، <مصر القديمة>، دار الشروق، 2007، الطبعة الثانية.

* لو ينغ بو/حسن بالعربية، ولد سنة 1980 م، حاصل على الماجستير، محاضر فى قسم اللغة العربية بجامعة اللغات والثقافة ببكين. يتخصص فى البحث فى اللغة العربية آدابها.